

التاريخ المفاهيمي مقاربة إبستمولوجية

عبد الرحيم الحسنواوي⁽¹⁾

تمهيد إشكالي

تحاول هذه الورقة البحثية ومن زاوية إبستمولوجية إثارة بعض القضايا أو الإشكاليات المتصلة بالمفهوم التاريخي، وذلك في ارتباط تام بالتطور والتجديد المستمرين اللذين عرفتهما صناعة المعرفة التاريخية، ولا سيما في بداية القرن العشرين، حينما أصبح التاريخ علمًا اجتماعيًا. واللافت للانتباه هنا هو أن المناظرة حول التاريخ ما زالت مستمرة، والمؤرخ يفتح باب حجراته ليشتبك في العراك الصاخب حول معنى التاريخ، كما يحرص أن تكون صناعته علمية المنهج والمنزع، وهو مطالب بأن يقنع المتلقين بعمله وبصدقته ما يكتب من أبحاث ودراسات تاريخية. تبرز هنا فكرة التفكير النقدي الحديث، ويقصد بذلك القراءة الاستشكالية التي ترقى بالمعرفة التاريخية من مستوى المعطى الخام (التوثيق) إلى مستوى التحليل المفاهيمي أو الإشكالي الذي يظهر مجهود النقد والتفسير والاستنتاج. في تقديمنا لموضوع هذه الورقة تبرز أمامنا بعض التساؤلات، من قبيل: ماذا يقصد بالمفهوم التاريخي؟ ما الأهمية أو المنزلة التي يحتلها المفهوم في الخطاب التاريخي الجديد (النقدي/الإشكالي)؟ ما تصورات المؤرخين وممارساتهم بخصوص المفاهيم التاريخية؟ ما الأنماط التي يدل عليها التاريخ المفاهيمي؟ كيف يتداول المؤرخون المفاهيم التاريخية؟ ماهي بعض الصعوبات أو الإشكاليات الإبستمولوجية التي يطرحها المفهوم أو المفهمة في حقل الدراسات التاريخية؟

المفهوم التاريخي: المعنى والدلالة

المفهوم بصورة عامة هو كل تعبير تجريدي ومختصر يشير إلى مجموعة من الحقائق و الأفكار المتجاورة من حيث المعنى و الدلالة، وهو من ثم صورة ذهنية ترتسم في ذهن الفرد عن موضوع معين، على الرغم من عدم اتصاله مباشرة بالموضوع المدروس. وإذا انتقلنا إلى مجال التاريخ، فإننا سنجد بأن المفهوم التاريخي هو الآخر يتسم بقدر كبير من التجريد، غير أن المؤرخ وبواسطته أي المفهوم يستطيع أن يستخلص منه عددًا من الخصائص المشتركة للوقائع والأحداث التاريخية المدروسة، إذ من صفات المفهوم التاريخي التعميم والرمزية والتطور⁽²⁾.

(1) عبد الرحيم الحسنواوي: أكاديمي وباحث مغربي.

(2) خيرى علي إبراهيم، «تطور مناهج التاريخ على ضوء مدخل المفهومات»، المجلة العربية للتربية، المجلد 7، العدد الأول، (تونس: 1987)، ص 78.

تعد المفاهيم مسألة أساسية في خطاب المؤرخ، حيث تمكنه تحليل الأحداث التاريخية، وتفسيرها، والكشف عن الأنساق وأنواع الترابطات والعلاقات التي تربط بين الأحداث والوقائع المدروسة؛ فمن دون مفاهيم وأفكار عامة لن يكون باستطاعة المؤرخ فك رموز الوثائق وألغازها، وتناول المعطيات المفردة التي تتركب منها تلك الوثائق.

إن المفاهيم هي النواة الصلبة في كل العمليات الفكرية والذهنية التي يقوم بها المؤرخ بغية إعادة بناء المعرفة التاريخية، وتشكيلها وفق تصورات وتساؤلات جديدة. ولا يمكن أيضاً فصل فكرة التاريخ عن محيطها المفهومي، فهي التي تقربه من العلم. ومن دون مفهومة أيضاً يبقى البحث التاريخي مجاناً الأسئلة الصعبة بحجة الأمانة للوثيقة، أو محاولاً الإجابة التبسيطية تحت مظلة الأجوبة المنمطة. وتأخذ المفهومة (La conceptualisation) هنا معنى مزدوجاً ما دام المؤرخ يشتغل بالمفاهيم، وعلما. ولا تقتصر المفهومة على جوانب التعريف فقط، بل تشمل كل مكونات المنهج التاريخي أو عناصره، ولا يمكن أن نتصور أيضاً تاريخاً من دون مفهومة، فهي أداة توجه البحث التاريخي، وفي الوقت نفسه مادة يريد المؤرخ البحث فيها، باعتبار التاريخ معرفة نقدية تقوم على التساؤل والنقد والتحليل والاستدلال.

اشتقت المفهومة إذن في حقل الدراسات التاريخية من المفهوم التاريخي الذي يحيل على زمان ومجال ومعنى أو مدلول، ويولد ضمن سياق ظرفي معين، وينمو ويتطور طالما يتم تداوله، كما يرتبط المفهوم أيضاً بالإشكالية، والتي من دونها لا يكون له معنى، ويتميز أيضاً بقابليته لاستقبال عناصر جديدة، ويشمل سلسلة مترابطة من الاستدلالات التي تشير إلى مجموعة من الخصائص والحقائق والأحداث والمواقف.

يتحدد المفهوم التاريخي كذلك ضمن سياقين؛ أحدهما زمني بحكم انتماء أي مفهوم لمدة تاريخية معينة، أما الثاني فهو سياق منهجي حيث يكون المفهوم هنا حصيلة بحث واستقراء منهجي؛ وبعبارة أخرى فالمفهوم التاريخي هو من إنتاج المؤرخ، بمعنى أن المعرفة التاريخية المؤسسة على مفاهيم ليست انعكاساً آلياً للواقع المدروس، بل هي واقع تم تمثله من طرف المؤرخ انطلاقاً من دراسته للأحداث والوقائع التاريخية. وبحسب عبد الله العروي، فإن المؤرخ هو من يخضع لمفهوم التاريخ بمتعلقاته كلها، ويعني بالمفهوم هنا الأسس المعرفية التي تميز الدراسات التاريخية من دراسات أخرى حول الموضوع نفسه، والمفهوم في نظره هو المنهج الذي يشمل مفردات فكرية مثل القاعدة الاقتصادية، الدولة، المجتمع...⁽³⁾، والتي تلعب في ذهن المؤرخ دور مفهوم الطاقة في ذهن الفيزيائي. ولذلك وجب عليه، أي المؤرخ، أن يعرف بالضبط المقولات التي يمكنه استعمالها، وفي أي مستوى من التجريد؛ فمن دون معرفة السياق العام والأحوال العامة لأخبار محتوى الوثيقة؛ يتعذر على المؤرخ كل تمثيل وفهم، وكل توجه نحو التعميم والتخصيص.

التاريخ النقدي الحديث: من المفهوم إلى المفهومة التاريخية

يكتسي المفهوم التاريخي أهمية متزايدة في الخطاب التاريخي الجديد⁽⁴⁾ الذي يطلق عليه بول فاين (Paul

(3) عبد الله العروي، مفهوم التاريخ، الألفاظ والمذاهب، ج1، (الدار البيضاء- بيروت: المركز الثقافي العربي، 1997)، ص 175 وما بعدها.

(4) داخل صناعة التاريخ يبرز مفهوم «التاريخ النقدي» أو «التاريخ الإشكالي» (Histoire-problème) وهو يستعمل للتمييز بين التاريخ في حلته الجديدة والتاريخ السردى الحديث (الوضعي) في شكله القديم. ويمتاز التاريخ الإشكالي باستقلالية ذاتية، فالمؤرخ لا يكتفي بتفسير الأحداث عند سردها، بل يجعل من التفسير

(Veyne) «التاريخ المفهومي» (L'histoire conceptualisante) وهو تاريخ تبرز جوانبه في مجهود النقد والتفسير والاستنتاج، والذي يشكل نمطاً مفهوماً (Idéaltype) بحسب عبارة ماكس فيبر (Max Weber)، وبفضله يتم تجاوز الإحساس الغامض. ويبين بول فاين في مقالة تحت عنوان التاريخ المفهومي⁽⁵⁾ أنه لا سبيل لدينا أن نتحصل على معرفة مباشرة بالضرورة التاريخية، إذ المسالك الحديثة لا تقدم إلينا إلا بصفة غامضة ومشتتة. إن عبارات «التاريخ اللاحدي» و«التاريخ العميق» و«التاريخ المقارن» و«السوسيولوجيا التاريخية» هي كلها صيغ مختلفة لتعيين عمل الصياغة المفهومية لهذا الكل المختلط الغامض الذي يتعامل معه المؤرخ في المنطلق. وهكذا فالمجهود التاريخي يشبه المجهود الفلسفي أكثر من المجهود العلمي⁽⁶⁾. فالتاريخ، وإن ظل لا محال حكاية وسرداً، إلا أن هذا السرد لا يمكن أن يستغني عن أفق صوري يؤسسه ويحدده، وإن كان أفقاً ضمنياً غير واع بذاته أحياناً كثيرة. التاريخ هو وصف الفرد من خلال الكليات، وهذه الكليات هي مجموعة من المفاهيم الإجرائية ذات الطابع الإشكالي، ذلك أنها تسمح بفهم الوقائع لكونها ثرية بما تحتويه من معنى يتجاوز كل تحديد ممكن، إلا أنها للسبب نفسه تتسبب دوماً بسوء الفهم⁽⁷⁾.

إن الجانب المفهومي من التاريخ هو ما يقربه من العلم، إذ المفاهيم هي نواة العلمية في خطاب المؤرخ، ولكن هل يمكن أن يكون التاريخ موضوع علم؟ وهل النماذج النظرية التي يبنها المؤرخ تستجيب لخصائص القانون العلمي نفسها؟ إن هذا السؤال يطرح بحدّة في الحوار الدائر اليوم حول منزلة التاريخ في العلوم الإنسانية. ففي حين يرى رولان بارث (Barthes Roland) فكرة أن لا فرق بين سرد المؤرخ لأحداث الماضي والسرد القصصي للرواية أو الملحمة⁽⁸⁾، يرفض كلود ليفي ستراوس (Claude Lévi-Strauss) مفهوم الحقيقة التاريخية بوصف المؤرخ لا يتعامل مع معطى محدد وواضح الخصائص والمميزات: «المؤرخ أو صانع المستقبل التاريخي هو الذي يكون هذا المعطى بفعل التجريد، بمعنى أن المؤرخ يمارس التقطيع والتفصيل كي لا يواجه تاريخاً كلياً هو أشبه بالسديم. وتحتوي كل زاوية من زوايا المكان نفرّاً من الأفراد يحمل كل منهم السيرة التاريخية بصفة مغايرة عن الآخرين، ولحظة الفرد هذه ذات غنى لا ينضب، فما دام التاريخ الكلي ممتنعاً، فإن الموضوعية مفقودة، فالتاريخ ليس أبداً التاريخ لذاته، بل التاريخ بالنسبة لنا... والتاريخ متميز دائماً وحتى وإن دفع التميز عن نفسه فس يبقى بالتأكيد جزئياً ولكن الاجتزاء ليس إلا نوعاً من الانحياز»⁽⁹⁾.

إلا أن بول فاين يلاحظ بصدق أن ما يميز الكتابة التاريخية من السرد الخيالي هو كونها تتحرى الحقيقة في عملية السرد، فمن خلال معيار الحقيقة يقترّب التاريخ من نمط المعرفة العلمية. إلا أن التاريخ هو معرفة الأحداث، أي الوقائع، بينما العلم هو معرفة بالقوانين التي تحكم الواقع. فالتميز الصحيح ليس راجعاً إلى الواقع، وإنما إلى الاختلاف بين نمطين معرفيين: المعرفة التاريخية هي مجموعة من الوقائع، بينما العلم معرفة

ممارسة نوعية توظفها إشكالية محددة وخاضعة لسياق التوثيق والتعليل وضمن وضع واقعي يحتمل الاعتراض. انظر:

-François Furet, De l'histoire-récit à l'histoire-problème, dans L'atelier de l'histoire, (Paris: Flammarion, 1982), p. 73-90.

(5) Paul Veyne, L'histoire conceptualisante, in Jacques Le Goff & Pierre Nora (dir.), Faire de l'histoire t.1 : Nouveaux Problèmes, (Paris: Gallimard, 1974).

(6) Ibid, p.63-92.

(7) Paul Veyne, Comment on écrit l'histoire ?, suivi de Foucault révolutionne l'histoire, (Paris: Seuil, 1971), p.89.

(8) Roland Barthes, Le discours de l'histoire, information sur les sciences sociales, vol IV, n°4, 1967, p. 65-75.

(9) كلود ليفي ستراوس: الفكر البري، نظير الجاهل (مترجمًا)، (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسة والنشر والتوزيع، 1987)، ص 307-308.

بالقوانين⁽¹⁰⁾.

وهكذا فالتاريخ لا يمكن أن يختزل في أي علم، كما أنه لا يوجد علم للتاريخ يكون مفتاح الصيرورة أو محرك التاريخ، وإنما هناك فقط كما يقول بول فاين متغيرات استراتيجية تختلف باختلاف السياقات. فالتاريخ، كما يجري وكما يكتب، هو من شأن الحزم (Prudence) وليس من شأن العلم (Science) إلا نفي طابع العلمية عن التاريخ، لا يعني أنه ليس نشاطاً نظرياً يتطلب دقة الصياغة وإحكاماً في المنهج، إذ فهم الوقائع ليس أمراً عفويّاً مباشراً، فليست المجتمعات شفافة -كما يقول بول فاين-، إن عصرنا الذي أعاد تأسيس التاريخ قد بين أن القطاع البارز من الأحداث تحكمه محددات غير حديثة يحاول التاريخ الجديد في مختلف أشكاله فهمها. إن التأسيس الجديد للتاريخ اليوم لا يكمن في اكتشاف آليات أو محركات تفسر التاريخ، وإنما في تفسير اللاحثي (Le non événementielle)، وصياغته صورياً، ولذا نجد لدى مؤرخ القرن العشرين من الأفكار والمفاهيم أكثر مما نجد لدى صاحب حوليات قديم لا يرى في التاريخ سوى الملوك والمعارك والأوبئة. فالنشاطات العقلية، طبيعية كانت أو نظرية، التي تتطلب الصياغة المفهومية لا تنحصر في العلم؛ والتاريخ ليس سوى أحد هذه النشاطات. وبرز جانبه المفهومي في مجهود النقد والتفسير والاستنتاج الذي يشكل نمطاً مفهوماً (L'idéal-type) بحسب عبارة ماكس فيبر، بفضلته يتم تجاوز الإحساس الغامض.

إن المفاهيم هي التي تميز التاريخ عن الرواية التاريخية وعن وثائقها الخاصة، فإذا كان الكاتب الروائي ينشئ الواقع أو يعيد بناءه، فإن المؤرخ يعطي مقابله المفهومي، ولذا فهو ليس جامع وثنائقي. إن الأفق التصوري هو ما يفسر إذن دلالة التاريخ غير الحداثي الذي يعوض اليوم تاريخ المعارك والمعاهدات الذي كان تاريخاً سردياً يكتب في مستوى المصادر، في مستوى تصور معاصري الحدث لتاريخهم الخاص. ولذلك فإن الصياغة الصورية والشكلية هي عماد النهج التاريخي الجديد في مقابل النزعة الأدبية أو الطموح العلمي الوضعاني (Positiviste)⁽¹¹⁾.

المفهوم التاريخي في منهجية المؤرخ: تصورات وممارسات

تخترق إشكالية المفاهيم معظم مراحل التفكير التاريخي أو مساره من بدايته إلى نهايته، سواء اشتغل المؤرخ بمفاهيم أصيلة من داخل حقل التاريخ أم بمفاهيم مستوردة من حقول معرفية أخرى، وهو مطالب في الحالتين كليهما بأن يمنحها بعدها التاريخي أي الانتقال من العمومية إلى التخصص تفادياً لما يسمى بإسقاطات الحاضر على الماضي، وتجنب أي اختراق لخصوصية الواقع التاريخي المدروس.

بصرف النظر عن المفاهيم التاريخية المحكومة بانتمائها لزمان معين، فإن المؤرخين يلجؤون إلى استعمال مقولات تختزل أحداثاً وتطورات عدة، فيتحوّل الحدث إلى مفهوم جامع⁽¹²⁾، ويقصد به العملية التي يقوم بها المؤرخ عندما يجمع أحداثاً مختلفة تحت مفهوم واحد، ويبني بشكل دوراني، وبحسب الأبعاد الثلاثة، المكاني والزمني والمدلولي. وهذه الأبعاد الثلاثة هي التي تعطي للمفهوم بعده التاريخي. ومن ثم، تصبح عنواناً أو نعتاً كالتحفة الأوروبية، والرأسمالية، والدولة...إلخ. هكذا إذن، تبقى المفاهيم أدوات ضرورية بالنسبة إلى العمل

(10) Paul Veyne, Histoire, Encyclopædia Universalis, vol. 8, 1970, p. 423-424.

(11) Paul Veyne, L'histoire conceptualisante, op.cit., p. 66-72.

(12) عبد الله العروي، مفهوم التاريخ، المفاهيم والأصول، ج2، (الدار البيضاء- بيروت: المركز الثقافي العربي، 1997)، ص 244.

التاريخي، وذلك لاعتبارات عدة نعرض لها كما يأتي:

- أ. تسمح المفاهيم للمؤرخ بتوجيه ملاحظاته ومشروع بحثه، كما أنها توجهه نحو تساؤلات تكون بمنزلة وسيلة للفحص، وبواسطتها تتم عملية استبدال منظور معقد بأخر بسيط⁽¹³⁾، حينئذ تصبح كجسر عبور من العام إلى الخاص أو العكس، ومن الإطار النظري إلى العمل التجريبي، فضلاً على أنها تشكل أداة للمقارنة سواء من حيث المفاهيم المتكاملة أم المتقابلة⁽¹⁴⁾.
- ب. تعمل المفاهيم داخل شبكة تسمح لها بتعدد طرق البحث وزوايا المقاربات، وبقدر ما يمتلك المؤرخ ترسانة مفاهيم حول مادته بقدر ما تزداد تساؤلاته عددًا وتشعبًا. بيد أن تلك المفاهيم، ومهما بلغت أهميتها ينبغي إخضاعها للنقد، كما أكد على ذلك عبد الله العروي في مؤلفه «نقد المفاهيم»⁽¹⁵⁾.
- ت. يعبر التاريخ عن نفسه بواسطة المفاهيم التي تتيح للمؤرخ إمكان تمييز الوقائع بحسب زمنية الأحداث وانتظامها وتتابعها وتطورها، وهو الأمر الذي سيؤدي إلى الكشف عن المعاني المضمرّة التي يمكن أن تكون أفقية انطلاقًا من نوعيتها (مقارنة الأحداث بأخرى مشابهة) أو عمودية مستمدة من شروط الإنتاج (موقع حدث معين بالنسبة لأحداث أخرى مختلفة أو متشابهة). وكل من العمليتين تتم في إطار نسق تزامني (Synchrone) أو نسق تعاقبي (Diachronique)، وفي مدد أو أزمنة تختلف بين القصيرة والمتوسطة والطويلة⁽¹⁶⁾.
- ث. يتيح المفهوم أيضًا للمؤرخ فرصة أو إمكان التخلص من المغالطات والأوهام، ومن اللغة التاريخية غير الدقيقة، وأخيرًا المفهمة تقوم بوظيفة أخرى: تحويل العرض المهم للمصادر إلى مجموعة منظمة ومحكمة البناء.

أنماط المفاهيم التاريخية: رؤى نظرية

يدل التاريخ المفاهيمي على نمطين من المفاهيم: المفاهيم المستعارة من العلوم الأخرى والمفاهيم التاريخية التي يقوم المؤرخ ببنائها وإنتاجها، والتي تدل على هوية علم التاريخ وتشير لموضوعه. ومهما تعددت المفاهيم الموظفة في المعرفة التاريخية، فإنها تبقى أدوات عمل ضرورية بالنسبة للمؤرخ سواء اشتغل هذا الأخير بمفاهيم أصيلة من داخل حقل التاريخ أي من إنتاج المؤرخين، أو بمفاهيم مستوردة من حقول معرفية أخرى مجاورة. وفي ما يلي عرض لأهم الأفكار التي حاولنا الاستضاءتها بها حول هذا الموضوع:

- أ. المفاهيم الخاصة بعصرها (Les concepts d'époque)⁽¹⁷⁾: بالنسبة إلى الأحداث

(13) Christian Laville et Jean Dionne, La construction des savoirs, (Montréal, Chenelière/ McGraw-Hill, 1996).

(14) Mostafa Hassani Idrissi, Pensée historique et apprentissage de l'histoire, (Paris : L'Harmattan, 2005), p. 136.

(15) عبد الله العروي، نقد المفاهيم، (الدار البيضاء- بيروت: المركز الثقافي العربي، 2018).

(16) Mostafa Hassani Idrissi, Pensée historique et apprentissage de l'histoire, op.cit, p.99.

(17) Ibid., p. 149-150.

والوقائع غير الواردة أو غير المعبر عنها في المصادر، فإن المؤرخ ليس له من اختيار سوى اللجوء إلى مفاهيم زمنه التي شكل بها تساؤلاته. أما بالنسبة إلى الأحداث التي سبق ذكرها، فالمؤرخ في هذه الحالة ملزم بالاختيار بين أن يعمل استناداً على مفاهيم الحقبة التاريخية المدروسة أو على مفاهيم خارجة عن تلك الحقبة. كما أنه قد يضطر أحياناً إلى إزاحة المفاهيم الجديدة لتجنب الاختلاف في التحقيق، فيستعمل مفاهيم العصر الذي يدرسه، ومسمى الوقائع بمسمياتها.

ب. المعنى العام (Répertoire du sans commun)⁽¹⁸⁾: بخلاف المفاهيم الخاصة بعصرها التي تصف ما هو متفرد من الأحداث، في مجموعة اجتماعية محددة في الزمان والمكان. فالمفاهيم التي يستعيرها المؤرخ من اللغة المتداولة تطبق على أي إنسان في أي عصر أو زمن ما، أي إنه يستعمل مادة مفهومية جار بها العمل، ولا تتطلب أي مخزون معرفي متميز. مثلاً عند استعمال كلمات: حياة، موت، إنسان، امرأة، مدينة... إلخ. هذه اللغة تسهم في جعل هذه الكتابات التاريخية أكثر انتشاراً لأنها تكون مقروءة من طرف الجميع، ومنه من ثم الشهرة الواسعة لمثل هذه الكتابات. إلا أن المؤرخ يستعمل هذه المفاهيم بنوع من الحذر والتخوف لأنها تكون في غالب الأحيان شمولية، محملة بمعاني غزيرة، مهمة، متناقضة لأن المؤرخ يستعمل كلمات متعددة المصدر. مثلاً كلمة «السبب» تستعملها العلوم الطبيعية كما تستعملها العلوم الإنسانية استعمالاً مختلفاً بالتأكيد، وبحسب السياق الذي جاءت فيه، فهي تعني الشرط الضروري أو الكافي أو ظرفية عابرة مسؤولة عن حدث ما.

ت. المفاهيم المستعارة (Les emprunts aux disciplines voisines)⁽¹⁹⁾: يرى أنطوان بروست (Antoine Prost) وفي هذا السياق، بأن التاريخ لا يفتأ يستعير المفاهيم من العلوم المجاورة له أو القريبة منه، يظل طوال الوقت يحضن بيضاً غير بيضه⁽²⁰⁾. فمثلاً علم التاريخ السياسي يستعمل مفاهيم علم القانون الدستوري. وعلم التاريخ الاقتصادي يغرف مفاهيمه من ترسانة علماء الاقتصاد وعلماء الديموغرافيا. ومفهوم «التاريخ الجديد»⁽²¹⁾ برز بفضل استعاراته المفاهيمية من علم الإثنولوجيا (L'ethnologie) والذي يبحث في أصول السلالات البشرية. هذا القبض الشامل إن صح التعبير للمفاهيم من العلوم الإنسانية يطرح مشكلاً، وهو أن المفاهيم المقتبسة يتم إخضاعها لتحويل مقرر ومؤكد، لتصبح قابلة للاستعمال في علم التاريخ، لكي

(18) Ibid., p. 150-151.

(19) Ibid., p. 151.

(20) Antoine Prost, Douze leçons sur l'histoire, (Paris : Le Seuil, 1996), p. 137-138.

(21) التاريخ الجديد: هو مؤلف جماعي تحت إشراف جاك لوغوف يشتمل على عشر مقالات ومقدمتين (مقدمة الطبعة الأولى الصادرة سنة 1978، ومقدمة الطبعة الثانية الصادرة سنة 1988). تتميز المقالات التي يحتويها هذا الكتاب بالغرارة في الأفكار وتبدوا النصوص وعلى اختلاف مؤلفيها كما أنها لو صيغت بقلم واحد، وهو ما أعطى لهذا العمل ترابطاً في المحتوى وتناسقاً في الشكل. للمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى المؤلف أو الكتاب ال آتي:

-Jacques Le Goff, Roger Chartier, et Jacques Revel (dir), La Nouvelle Histoire, (Paris : Editions Retz, 1978). (2ère éd. 1988).

تأخذ للتو معنى مفاهيمياً مختصاً في العلم الجديد. هذه المفاهيم أيضاً تستمد صحتها من قيمة العلوم المستعارة عنها، وهي مدينة كذلك لقدرة العلم المضيف لها على أقلمتها مع الأدوات المنهجية الخاصة به.

علم التاريخ إذن، وعلى غرار باقي العلوم الأخرى، له بعض المفاهيم التي تدل على هويته، وتشير إلى موضوعه. لكن هناك بعض المفاهيم يشترك فيها مع العلوم الإنسانية الأخرى، وخاصة كل المفاهيم المرتبطة بالزمن أو بعبارة أكثر دقة المفاهيم المرتبطة بالتتالي في الزمن. مثل: التطور والتحول والتغيير والاستمرارية والحقبة والمرحلة والحادثة القطيعة... إلخ. هذه المفاهيم تنتمي في مجموعها إلى حقل التاريخ.

مفاهيم الماضي ومفاهيم المؤرخ

يتداول المؤرخون عمومًا مجموعة من المفاهيم تحتوي بالضرورة أبعادًا ثلاثة هي الزمان والمكان والمجتمع. وبالوقوف عند البعد الأول يمكن التمييز بين نوعين من المفاهيم: الأول هو عبارة عن مفاهيم سابقة وردت لغويًا في أوضاع وسياقات تاريخية خاصة. والثاني يتعلق بمفاهيم معاصرة هي نتاج وقائع خبرية في شكل أحداث من طرف المؤرخين. لذلك فإن هذه المفاهيم عادة ما تكون لصيقة بزمن المؤرخ وثقافته⁽²²⁾ كما أن مستويات التعميم والتشخيص فيها تختلف بالنظر إلى علاقتها مع المدة الزمنية التي تنتمي إليها أصلاً. وبتعبير آخر، فإن عمل المؤرخ ينطوي على تجاوز زمنه الخاص لولوج زمن الوقائع من خلال الوثائق التاريخية المدروسة. (مثلًا الانطلاق من مفاهيم عامة كالثقافة أو الثورة أو الإصلاح للإحاطة بها وفي سياقها التاريخي الخاص).

ومهما بدت هذه الأحداث المفاهيم بالنسبة إلى المؤرخ متزامنة للوهلة الأولى، فإنه سرعان ما ينتقل إلى عملية ربط بعضها ببعض الآخر، وتنظيمها، الشيء الذي يدرجها في اتجاه تاريخي معين⁽²³⁾ فكلما كانت هذه الأحداث بعيدة عن زمن المؤرخ إلا واجتهد في تحليلها، بينما يكتفي بنقلها أي بتسجيلها ما دام معاصرًا لها، الشيء الذي يجعل عمله شبيهًا بعمل الصحفي، ومكتفيًا بالإجابة عن السؤال: ما الخبر؟. بيد أن هناك فوارق تقليدية تظل قائمة بين المهنتين، حيث يعقد هنا عبد الله العروي مقارنة بين الصحفي والمؤرخ؛ «فالحديث الذي يصفه الصحفي ويتركه للمؤرخ هو حدث واحد في حين أن المفهوم نفسه يختلف عند هذا وذاك. وعلى عكس الصحفي الذي ينطلق من الحدث شأنه في ذلك شأن الإخباري فإن المؤرخ المحلل لا ينطلق ولا يمكن أن ينطلق من الحدث، بل من الأثر المترتب عنه. والحال هنا يستوجب الحديث لا عن عودة الحدث، بل العودة إلى الحدث»⁽²⁴⁾.

والجدير بالذكر هنا أن بعض المفاهيم يتطور مدلولها لتعبر عن حدث أو حقبة زمنية بأكملها (مثلًا الثورة الفرنسية أو عصر الأنوار أو زمن الخلافة...) من دون إغفال عامل اللغة في ارتباطه بالثقافة، حيث يحمل كل مفهوم شحنة دلالية خاصة.

وإذا ما كان حقل التاريخ مفتوحًا لاحتضان مفاهيم كل الحقول المعرفية الأخرى، وخاصة الاجتماعية فإن

(22) Reinhart Koselleck, Le futur passé. Contribution à la sémantique des temps historiques, (Paris : Éditions de l'ÉHÉSS, 1979), p.307.

(23) Paul Veyne, Comment on écrit l'histoire, op.cit., p. 45.

(24) عبد الله العروي: مفهوم التاريخ، الألفاظ والمذاهب، ج 1، مرجع سابق، ص: 78.

الحديث عن المفاهيم التاريخية، وكما أشرنا إلى ذلك سالفًا، لا يمكن أن يتم إلا في سياقين؛ أحدهما زمني والثاني منهجي. ومهما تعددت هذه المفاهيم، فإنها تعكس مجموعة من الخصائص:

أ. المفهوم من إنتاج المؤرخ بمعنى أن المعرفة التاريخية المؤسسة على مفاهيم ليست انعكاسًا أليًا للواقع المدروس بل هي واقع تم تمثله من طرف المؤرخ بواسطة مفاهيم منتجة وأدوات منهجية وذهنية عامة، فالمفهوم الذي يستعمله المؤرخ للحديث عن الماضي يستخدم فيه مفاهيم الحاضر، ويدخل الظواهر الحديثة في أطروحاته. ويمكن القول كذلك بأن المفهوم هو أداة لجمع الأحداث والوقائع تحت نعت أو اسم واحد، فالمؤرخ يتدرج من الواقعة بوصفها شكلًا ملموسًا إلى الحدث بوصفه تركيبًا نظريًا.

ب. إن المعرفة التاريخية هي مجال لتداول أو توظيف أنواع عدة من المفاهيم منها ما ينتهي إلى الحس المشترك، ويمكن أن نضيف مفاهيم الفكر السياسي والفلسفي، وكذا مفهوم العلوم الاستقرائية والعلوم الاجتماعية المعاصرة. أما النموذج المثالي، وخاصة عند ماكس فيبر، فهو أداة لقراءة الواقع، ويمكن توظيفه في التاريخ، إلا أنه يبقى مفهومًا افتراضيًا أكثر منه وصفًا وتقديرًا للواقع. وهنا يجب على المؤرخ أن يتمتع بنوع من الاستقلالية فيما يخص نمودجه أو نماذج الآخرين، وأن يعتبرها محض أدوات معرفية، لأنه وبشكل عام تبقى هذه الأطروحات بالنسبة إلى المؤرخ بمنزلة فرضيات واجتهادات يمكن إقرارها أو نقدها.

ت. تبقى المفاهيم أدوات ضرورية للعمل التاريخي، ولا سيما التاريخ المقارن، فلا يمكن مثلًا أن ندرس ظاهرة معينة من الظواهر من دون أن نقارنها بأخرى. ولتماسك هذه الخطوة في الدراسة جعل (Jean Claude Passeron)⁽²⁵⁾ العلوم التاريخية علومًا تامة بكل معنى الكلمة، ليس بشكلها أو منهجها التجريبي، ولكن بالمقاربة المنهجية المقارنة التي من شأنها أن تساعد المؤرخ في الكشف عن العلاقات والترابطات السببية بين الأحداث، وعن نظام المعنى المحمول فيها. كما أنها تقدم أدوات مفيدة في الإخراج التركيبي للمعرفة التاريخية التي ينتجها المؤرخ في نهاية عمله.

إشكالية المفهوم والمفهمة في الدراسات التاريخية

على الرغم من الموقف النظري الحذر للمؤرخين، وتهربهم من المفهمة، فإن هذه الأخيرة تظل حاضرة على مستوى ممارستهم، ذلك أن المفاهيم تخترق مختلف مراحل مسار الفكر التاريخي. ويفسر نيكول لوتي (Nicole Lautier) هذا التهرب للمؤرخين من الاهتمام بالمفاهيم في كتابة التاريخ، بتلك التنظيرات الضبابية (fumeuses) المبالغ فيها أحيانًا، والتي تبتعد عن المهنية في الكتابة التاريخية المتصفة بالدقة والمعقولية⁽²⁶⁾. ويفسر أيضًا هذا التهرب بوضع المفهوم، فكل تفكير في المفاهيم في التاريخ يصطدم بإشكالية وضعه. والمفاهيم لكي تكون قابلة

(25) Jean-Claude Passeron, Le raisonnement sociologique. L'espace non-poppérien du raisonnement naturel, (Paris : Nathan, 1991).

(26) Nicole Lautier, Enseigner l'histoire au lycée, (Paris : Armand Colin, 1997), p.67.

للتحديد، فإنها تستوجب استقرارًا كافيًا للوقائع المدروسة. ويرى نيكول لوتي أيضًا بأن هذا الحذر في الاهتمام بالمفاهيم من طرف المؤرخين هو أمر غير مبرر، وخاصة في ضوء التطور الحاصل في العلوم المعاصرة، والتي أخذت على عاتقها حل مسألة الفردانية عن طريق الإبستمولوجيا التي سمحت بتعددية التأويلات، الشيء الذي سهل على المؤرخ محاولات في وضع المفهوم والتاريخ. لكن لا يجب الخلط بين ما هو إبستمولوجي وتاريخي، ليس لأن المؤرخين ليسوا «بمهموسين بفكرة الحدث المنفرد»، وكونهم يهتمون بما هو عادي ومكرر وماضوي ومتسم بالديمومة، بل بقدر ما هم يستغلون المفاهيم لتعميمها، وأيضًا من أجل تخصيصها⁽²⁷⁾.

تشكل المفهمة إذن أحد أهم العناصر الجوهرية في الممارسة التاريخية. بيد أن المفاهيم غير المطابقة لموضوعاتها قد تؤدي بالمؤرخ نحو خطر انزياح أو انحراف المفهوم عن معناه أو مدلوله الحقيقي، ولذلك وجب وضع المفهوم دائمًا في سياقه الزمني وإطاره الموضوعاتي، وبعده الإشكالي، فالمفهوم الواحد على سبيل المثال قد لا يلعب الدور نفسه في المجتمعات كلها. وسواء كان الحدث مفهومًا أم المفهوم حدثًا، فإن المؤرخ مطالب كذلك بتوخي الحذر والاحتراس المهيجي، ومراعاة ما إذا وظف مفاهيم في غير محلها، والتي إذا ما توفرت قد تشوه الحقيقة، وفي هذا المضمار نشير على سبيل المثال لا الحصر إلى مسألة ترجمة المفاهيم ووضعها في غير محلها، ولاسيما إذا جاءت هذه الترجمة مواكبة لإسقاط مفاهيم المترجم على مجتمعات غريبة عنها، فتنحول الإقطاعية مثلاً إلى الفيودالية. أضف إلى ذلك كله أن العملية النقدية أيضًا قد تتعثر نتيجة غلبة التعميم على طابع المفهوم، وهو ما قد يطمس كثيرًا من الحقائق⁽²⁸⁾.

نحن إذن إزاء مفاهيم هياكل قارة، لكن مضمونها متغير بالضرورة، وسواء أنتجها المؤرخون أم غيرهم، فإن استعمالها وتداولها هو الذي يطرح الإشكال، لذا يتعين ومن زاوية إبستمولوجية العمل على تحليل تلك المفاهيم عبر تحديد مدلولها من خلال انتمائها الزمني والمجالي والثقافي، وإبراز تطور مدلولها عبر انتقالها من صيغة الخصوصية، وهي زمنية بالدراجه الأولى، إلى التعميم زمنيًا ومكانيًا وثقافيًا. وكذا إدراج المفهوم، وكلما أمكن في سياقات متباينة بما في ذلك الصيغ اللغوية المختلفة، والنظر أيضًا في علاقة المفهوم بمفاهيم أخرى، وإدراجه ضمن شبكة مفاهيمية أكثر دلالة.

على سبيل الختام

بناء على كل ما تقدم من أفكار ومحاو هذه الورقة البحثية، أمكن لنا وضع بعض القضايا الأساسية لهذا البحث على النحو الآتي:

- أ. المفاهيم التاريخية هي تصورات ذهنية تتميز بالتجريد والتعميم. كما أن التاريخ ما فتى يعبر عن نفسه أيضًا بواسطة المفاهيم التي تعد أدوات لتصنيف الوقائع، والكشف عن العلاقات والترابطات السببية بين الأحداث، وعن نظام المعنى المتضمن فيها.
- ب. ترتبط المفهمة في حقل التاريخ إلى حد كبير بالطفرة الابستمولوجية التي حققتها المعرفة

(27) Nicole Lautier, Enseigner l'histoire au lycée, op.cit., p. 67.

(28) إبراهيم بوطالب، "إشكالية المصطلح في التاريخ"، مجلة أمل: التاريخ، الثقافة، المجتمع، العدد 15، 1998، ص: 45-60.

التاريخية موضوعًا ومنهجيًا، والتي جعلتها تنتقل من معرفة حديثة سردية إلى معرفة مفاهيمية إشكالية. إن من سمات التاريخ النقدي الإشكالي امتلاكه مجموعة من المفاهيم التي يعتمد عليها أدوات للتفكير والتحليل وقراءة الوقائع والأحداث التاريخية.

ت. تشكل المفاهيم إحدى أهم العناصر الجوهرية في الممارسة التاريخية فهي تقود عملية البحث وتوجه المؤرخ في طرح المشكل والاستكشاف الوثائقي. بيد أن الأحداث لا توجد جاهزة في الوثائق، بل تبني في ذهن المؤرخ. لأنه ليس ثمة من وثيقة من دون سؤال، ولا من سؤال من دون مشروع تفسير. إن استقرار الوثيقة التاريخية في ضوء مفاهيم علمية معاصرة. تبقى مسألة أساسية تتكامل فيها عملية التأريخ للواقعة مع التحليل المفاهيمي للسياق التاريخي، خاصة أن بعض المفاهيم قد يتغير مدلولها بحسب الزمان والمكان والمجتمع الذي أنتجت فيه، وإذا ما ضُبطت هذه المسألة، فإن ذلك يعد عاملاً مساعداً لعملية النقد. وفي مستوى آخر، فإن المؤرخ قد يقف أمام حوادث مبعثرة لا يجمعها جامع فعلي، سوى ما يخترعه من مفهوم، كما أن عملية التأويل المنهجي هي التي تسفر عن إنتاج المفهوم، والذي قد يتحول بدوره إلى مادة للتفكير التاريخي.

ث. إن المعرفة التاريخية هي مجال لتداول أنواع عدة من المفاهيم، واستعمالها، بعضها من إنتاج المؤرخين، وهي تدل على هوية علم التاريخ وتشير إلى موضوعه. وبعضها الآخر هو مستعار من حقول أو مجالات معرفية أخرى، كالاقتصاد والسياسة، الأنثروبولوجيا، السوسولوجيا، اللسانيات، علم النفس... إلخ. بيد أن تلك المفاهيم المستعارة هي مدينة كذلك لقدرة العلم المضيف لها، أي التاريخ، على بلورتها، وأقلمتها مع الأدوات المنهجية الخاصة به.

ج. يطرح استعمال المفاهيم واستثمارها في البحث التاريخي بعض الصعوبات أو الإشكاليات، من قبيل انحراف المفهوم عن معناه أو مدلوله الحقيقي أو توظيف أو ترجمة مفاهيم في غير محلها. وبالنظر إلى الطبيعة المتغيرة للمفاهيم في التاريخ، فإنه يمكن اللجوء إلى عدداً من استعارات تحليلنا على الملموس والمجرد في الوقت ذاته من جهة، وجسورًا تمهد عملية العبور عن صبح التعبير من ضفة الوقائع إلى ضفة الفهم والتفسير من جهة أخرى.

في نهاية تحليل هذه الورقة البحثية يمكن القول بأن التاريخ قديمًا وحديثًا، كان دائمًا أحد العلوم التي اعترافها قلقه الغني بالمنهج الذي يتجدد، ولا شك مع منعطفات البحث العلمي وأزماته. وإذا كانت المفاهيم أساسية في عملية الكتابة التاريخية، فإن عقلانية التحليل التاريخي هي التي من شأنها أن تعطي لتلك المفاهيم بعدها التاريخي. بيد أن إجراءات التحليل التاريخي لتلك المفاهيم تتطلب من المؤرخ وقفة تأملية قوامها التحليل والقول النقدي ثم مستوى التأويلات. وفي أثناء ممارسته لهذه المستويات يلجأ المؤرخ إلى مفاهيم وتقنيات راكمتها العلوم الإنسانية مثل الأنثروبولوجيا والسيمايات واللسانيات... وهي علوم فرضت نفسها على الحقل المعرفي التاريخي، وأصبح كل عمل لا يعبرها اهتمامًا عملاً منقوصًا ورتيبًا لا يمكن أن يحقق نتائج جديدة.

المصادر والمراجع

العربية

1. العروي. عبد الله، مفهوم التاريخ، (الدار البيضاء- بيروت: المركز الثقافي العربي، 1997).
2. -----، نقد المفاهيم، (الدار البيضاء- بيروت: المركز الثقافي العربي، 2018).
3. ستراوس. كلود ليفي، الفكر البري، نظير الجاهل (مترجمًا)، (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسة والنشر والتوزيع، 1987).

الأجنبية

1. Hassani Idrissi. Mostafa, Pensée historique et apprentissage de l'histoire, (Paris : L'Harmattan, 2005).
2. Koselleck. Reinhart, Le futur passé. Contribution à la sémantique des temps historiques, (Paris : Éditions de l'ÉHÉSS, 1979).
3. Laville. Christian et Jean Dionne, La construction des savoirs,)Montréal, Chenelière/ McGraw-Hill, 1996(.
4. Lautier. Nicole, Enseigner l'histoire au lycée, (Paris : Armand Colin, 1997).
5. Le Goff. Jacques, Roger Chartier, et Jacques Revel (dir), La Nouvelle Histoire,)Paris: Editions Retz, 1978).
6. Passeron. Jean-Claude, Le raisonnement sociologique, L'espace non-poppérien du raisonnement naturel, (Paris : Nathan, 1991).
7. Prost. Antoine, Douze leçons sur l'histoire, (Paris : Le Seuil, 1996).
8. Veyne. Paul, Comment on écrit l'histoire?, suivi de Foucault révolutionne l'histoire, (Paris : Seuil, 1971.)